الفصل السادس

العاجزون عن التأقلم

36

إن إحباط العاجزين عن التأقلم يتراوح في شدته من حالة إلى أخرى. هناك، أولًا، العاجزون عن التأقلم بصفة مؤقتة: أولئك الذين لم يجدوا بعد موقعهم في الحياة ولكنهم لا يزالون يأملون في الحصول عليه. ينتمي المراهقون، وخريجو الجامعة العاطلون، والجنود المسرّحون، والمهاجرون الجدد، إلى هذه الفئة. نجد كل هؤلاء قلقين متذمّرين يسيطر عليهم الخوف من أن أحسن سنوات عمرهم سوف تذهب هدرًا قبل أن يحققوا أهدافهم. يستمع هؤلاء إلى نداءات الحركات الجماهيرية، ولكنهم ليسوا أفضل المرشحين للانضمام إليها. يكمن السبب في أنهم لم يفقدوا الصلة نهائيًا مع نفوسهم، وأنهم لا يعدّون حياتهم ميؤوسًا منها. إن أقل بارقة من الأمل تعيدهم إلى التأقلم مع العالم ومع نفوسهم.

سبقت الإشارة إلى دور الجنود المسرّحين في نشأة الحركات الجماهيرية. أن أي حرب طويلة تشترك فيها جيوش عدة دول تنتهي بفترة من الاضطراب الاجتماعي بين المنتصرين والمهزومين على حد سواء. لا يعود السبب في هذا إلى العواطف الجياشة التي تفجّرت، ولا إلى طعم العنف خلال الحرب، ولا إلى فقدان الثقة في النظام الذي لم يستطع منع الخسارة

في الأمـوال والأرواح. يعـود السبب إلى خواء الروتين المدني في حيـاة الملايـين من الجنـود المسرحين. يصعب علـى هؤلاء أن يستعيـدوا وتيرة الحيـاة المدنية التي فقدوها مـع الحرب. إن التأقلم مـع السلام ومع الحياة في الوطن عملية بطيئة ومؤلمة، تمتلأ خلالها البلاد بالعاجزين مؤقتًا عن التأقلم.

وهكذا، فإنه يبدو أن العبور من الحرب إلى السلام أخطر على النظام القائم من العبور من السلام إلى الحرب(*).

37

أمّا العاجزون عـن التأقلم عجزًا دائمًا فهم أولئك الذين لا يستطيعـون، بسبـب نقصـ في الموهبة أو عيـب آخر لا يقبل العـلاج في الجسـم أو العقل، من تحقيق الشـيء الوحيد الذي يصبـو كيانهم كله إلى تحقيقـه. وأي إنجاز، مهما كان باهرًا، خارج المجال الذي يريدونه لا يعطيهم أي شعور بالرضا. يحوّل هـؤلاء كل مسعى في حياتهم إلى مطاردة محمومة، من غير أن يتمكنـوا من التوقـف أو من الوصول إلى الهـدف. يثبت هؤلاء

(*) ولعلّ هذا هو السبب الذي دفع الرئيس العراقي صدام حسين إلى إبقاء الجزء الأكبر من جيشه بعد انتهاء الحرب مع إيران، ثم إلى شغل الجيش كلّه بمغامرة غزو الكويت (المترجم).

أننا لا نشعر بالرضا عند تحقيق شيء غير الشيء الذي نريده، وإننا نجري أسرع ما نجري، عندما نهرب من أنفسنا.

إن العاجزين عن التأقلم عجزًا دائمًا لا يرون خلاصًا إلا في الانفصال التام عن أنفسهم وهم يجدون هذا الانفصال، عادة، في الرابطة الجماعية الصلبة التي توجدها الحركة الجماهيرية. عندما يتحررون من الإرادة الفردية، والمنطق الفردي، والطموح الفردي، وعندما يكرسون كل جهودهم لخدمة القضية الخالدة، عندها، فقط، يستطيعون الإفلات من جهدهم الفردي العبثي الذي لا يقود إلى نتيجة.

نجد أشد المتطرفين إحباطًا، ومن ثم أكثرهم تطرفًا، بين العاجزين عجزًا دائمًا عن التأقلم، أولئك الذين يحترقون بشوق قويّ عارم إلى الإبداع دون أن يتمكنوا من الإبداع: أولئك الذين يحاولون أن يكتبوا أو يرسموا، أو يؤلفوا الموسيقى، ومن إليهم، ويفشلون فشلًا تامًا، بالإضافة إلى أولئك الذين تذوقوا نشوة الإبداع، ثم خبت الجذوة بلا أمل في عودتها. كل أولئك يشعرون بيأس خانق، وأي شهرة أو ثروة أو سلطة، أو أي إنجازات أخرى باهرة، لا تنجح في ري غليلهم. حتى الاندفاع في خدمة قضايا مقدّسة قد لا ينجح، أحيانًا، في علاجهم. يظل جوعهم مستعرًا، الأمر الذي يجعلهم أكثر المتطرفين عنفًا في سبيل القضية المقدّسة.